بقايا العربة

قصة مصرية

بقلم : فؤاد القصاص

القاهرة فى ليلة آخر ديسمبر ..

فى قمة جمالها ورونقها .. حتى لتبدو كعروس فاتنة لم تبق غير لحظات وتزف الى فارس الأحلام ..

والشوارع تموج بالناس .. من كل نوع .. يحلمون بلحظات هنيئة يختلسونها من عمر الزمن ! ..

وملك الليلة .. بابا نويل .. بذقنه البيضاء كالثلج وضحكته الصافية قد احتل عرشه خلف الواجهات الزجاجية .. يسيح فى الاضواء الملونة .. وفى عينيه رقة وحنان وحب لا تكون الا فى عيون الملائكة ! ..

ووسط هذه الكتل المتدفقة من البشر كان (عادل) يشق طريقه فى صعوبة حتى وصل الى منتصف شارع سليمان باشا .. فوقف يلتقط انفاسه والزحام يكاد يخنقه .. ونظرات بابا نويل الصافية تتساقط فى قلبه .. كقطرات من السعادة !

ما اعجب بابا نويل هذا ! . انه لا يعيش كل عام غير ليلة واحدة .. هى كل عمره .. ولكنه ـ حتى هذه الليلة اليتيمة ـ يمنحها راضيا سعيدا ليملأ قلوب الناس بالبهجة وحب الحياة ! ..

انه لا يبخل بعمره القصير فيجود به فى سخاء عل الناس ينسوا أحزانهم وجفاف حياتهم .. أو لعلهم يتخففون من لوعة فراق العام القديم ورهبة لقاء العام الجديد ! ..

وتنهد عادل فى أسى . كأنما قد حرك المنظر شجونه ! ..

وقال لنفسه وهو يمضى فى طريقه :

ـ كم من الناس يهبون حياتهم من اجل المجموع .. مثل بابا نويل هذا ؟ .

ونظر فى ساعة يده كأنما ليهرب من افكاره .. وقالت له الأرقام .. انه بعد ساعة .. يموت عام ويولد عام !..

واسرع من خطاه .. لقد تأخر عن رفاقه ـ مجموعة من اصدقاء الصبا ـ الذين واعدهم على أن يحتفل معهم بلقاء العام الجديد ! .

وبعد قليل كان يدخل عمارة كبيرة

فى ميدان سليمان باشا ولم يلبث ان احتوته شقة أنيقة فى الدور السابع ..

واستقبله اصدقاؤه بسيل من كلمات العتاب !

ـ لماذا تأخرت ؟

ـ اين كنت ؟

ـ ومع من ؟

ـ لا بد أنها واحدة ..

وأسكتهم باشارة من يده وهو يقسم لهم انه كان نائما ولم يستيقظ الا منذ ساعة وبعضها ،ولكنهم مضوايسخرون منه فى موجة مرحة من التهريج ، وقد بدا عليهم انهم على وشك ان يثملوا لكثرة ما غبوا من الخمر .. فالزجاجات امامهم قد ذهب منهـا اكثر مما بقى فيها ! ..

ومضت الدقائق فى حديث متصل كثيرا ما تشعب ، ولكنه ظل يدور حول حياتهم وذكرياتهم ايام الدراسـة .. وغراميات صـباهم يوم كانت القلوب مترعة بحب الحيـاة خالية من هموم الأيام .. ومسئولية اليوم والغد التى ما أن حملوها حتى سرقت أعمارهم وأحلامهم والقت بهم على أبواب الأربعين .. رجالا مهمومين قد ضاع شبابهم ولم تبق منه غير شعيرات سوداء تجاهد فى صلابة لتبقى بين الجيش الزاحف من الشعر الابيض يعلن فى صرامة أن النهـاية على الابواب !..

وبدأت الحسرة تنساب فى زفرات مكتومة من الأفواه فانطلقوا يهربون من الواقع بين أحضان الكأس ! .

وكان الوقت قد اقترب من منتصف الليل حتى لم تبق غير دقائق .. ويذهب عام بكل ما فيه من أحداث وصور .. ويجيء عام .. بكل مافيه من مجهول ؟

وتسلل شعور بالكآبة الى نفوسهم فران عليهم الصمت .. وانطوى كل على نفسه .. والأسى يقطر من نظراتهم !

وفجأة رفع أحدهم كأسه وهتف فى مرح مصنوع :

ـ انا أتحدى الغـد أن يأتى .. تراهنون ؟

ولم يجبه أحد حتى ولا بابتسامة !

وعاد يقول وكأنه يخطب :

ـ مم تخافون يا جبناء ؟ من الموت ؟ لن تموتوا هـذه الليلة .. أنا أعدكم بشرفى ..

وأطلقت الخمر لسانه فأخذ يهـذى بكلمات من أسطورة قديمة تقول: انمن يحب لا يموت .. ثم دعاهم فى النهاية الى البحـث عن الحـب حتى يضـمنوا الخلود ! .

وصـفق له الجميع . وبدأ المـرح يعود الى المكان من جديد ..

ونظر عادل الى ساعته .. كان الوقت منتصف الليل ..

وأطفئت الأنوار .. وسـاد الصمت المكان .. وغـرق كل فى أفكاره .. وعندما أضيئت الانوار معلنة مولد العام الجديد ، أخـذ الصديق المرح ينقل نظراته بين الجميع فى حـيرة .. ثم هتف بهم وقد استبد به الشمل :

ـ لقد كذبت عليكم .. أنا لا أضمن لـكم الفرار من عزرائيل .. ولكنى ـ

وأقسم لكم ـ اكتشفت لحظة الضلام اكتشافا خطيرا ! ..

وسألوه في صوت واحد وقد علت الابتسامات شفاههم :

ـ ما هو ؟ ..

ـ انكم ـ وأنا معكم ـ ستموتون !

وأغرقوا جميعا في الضحك ..

ومضى الوقت في مرح وصخب ، حتى اذا اقتربت الساعة من الثانية صباحا نهض عادل لينصرف .. وقد أصبح الجميع سكارى .. الا هو فقد أبى أن يقرب الخمر في ليلته .. رغم الحاحهم !

وحاولوا أن يستبقوه معهم ، ولكنه أخبرهم بأنه سيستقل سيارته على الفور الى بور سعيد ..

ـ الى بور سعيد ؟ لماذا ؟

وقال باقتضاب وهو شارد النظرات:

ـ لدى موعد هناك ..

وتصايح الجميع غير مصدقين :

ـ في الفجر ؟

ـ مع من ؟

وانطلقوا في تعليقات ساخرة حول الحورية المجهولة التي يلتقي بها عادل في أول كل عام مع الفجر ..

وحاولوا أن يحملوه على أن يقول لهم من تكون هذه السعيدة ، ولكنه ضن عليهم بسره الكبير حتى لا تلوكه السنتهم بسوء .. وهم سكارى ! ..

وعندما أقبل الفجر بأضوائه الوردية، كان عادل يقطع الطريق من قلب بور سعيد .. الى المقابر ..

وأمام قبر متواضع لا يميزه شيء عما حوله سوى قطعة صغيرة من الرخام كتب عليها بمداد أسود : « فتحي كامل .. استشهد في بور سعيد » .. وقف عادل مطرقا برأسه لحظات .. وقد جاشت في صدره الذكريات ؟!

بورسعيد .. وقوات العدوان الثلاثي تطحنها من البحر والبر والجو .. وهي صامدة تقاتل في بسالة أسطورية .. وعادل واحد من شباب المقاومة الذين وفدوا على المدينة من العاصمة .. في يده سلاحه وفي قلبه ايمان لا يهتز الا بالنصر ! ..

وفي اليوم المشهود ، عندما بدأ العدو يلقي بقوات المظلات على المدينة التي أبت أن تستسلم ، كان عادل يربض مع رفاقه في مدخل بور فؤاد من جهة البحر .. عندما أقبل شاب يحمل مدفعا رشاشا وقال لعادل في صوت أشبه بالصراخ ، ان مظلات العدو بدأت تهبط في مطار الجميل ..

وجمع عادل رفاقه وانطلقوا مع الشاب المجهول نحو ميدان المعركة والحماس يكاد يطير بأقدامهم .. بينما عادل يرقب الشاب بنظرات مختلسة فيها الكثير من الاعجاب .. فقد كان وجهه هادئا لا ينم عن أثر للاضطراب أو الخوف، وان كانت نظراته تشع بالتحفز والعزم !!

وهمس الشاب من بين أسنانه دون أن يلتفت نحو عادل :

ـ سنمزقهم .. هؤلاء الكلاب !

كان يتكلم بلهجة أبناء السواحل .. وسأله عادل عما اذا كانت له وحدة يقاتل معها ..

وهز الشاب رأسه علامة النفى ، ثم قال فى بساطة: ان أهله جميعا قتلوا فى احدى غارات الأمس ·· وانه ذهب الى معسكر المقاومة الشعبية فأعطوه سلاحا، أقسم ألا يتركه حتى يثأر لأهله ، وحتى تنتصر المدينة ! ··

وأنهى الشاب قصته القصيرة بأن اسمه فتحى كامل وبأنه كان طالبا فى مدرسة بور سعيد الثانوية ··

وأحس عادل بألفة عجيبة تربطه بفتحى ·· لعلها حداثة سنه ·· ولعلها حماسة المتدفق ·· ولعلها الكارثة التى حلت بأهله ·· أو لعلها المعركة الواحدة التى سيخوضان غمارها بعد لحظات دفاعا عن حرية وطنهما وكرامته ! ··

وبدأت طلقات الرصاص تقترب يصحبها دوى انفجار القنابل وأزيز الطائرات المنقضة ·· وبعد قليل كانت الجماعة الصغيرة قد أصبحت فى خط النار ·

وكانت المعركة فى عنفوانها ·· الشعب على الارض يقاتل فى عناد عدو يفوقه فى كل شىء ·· كما وكيفا ·· والطائرات المغيرة تكتسح المدافعين

برشاشاتها لتمهد مكانا لجنودها الهابطين ..

وبلا تردد ، ألقت الجماعة الصغيرة بنفسها فى معمعة القتال .. يحاولون بنيرانهم تشتيت قوة للعدو تمكنت من الهبوط فى طرف المطار وأخذت تقاتل لتثبت أقدامها .. ولكنهم لم يلبثوا فى دفاعهم عن نقطة ارتكازهم الا قليلا .. فقد استطاعت النيران المصرية المركزة أن تبيدهم عن آخرهم ..

وفجأة ، رأى عادل زميله فتحى يقفز الى الخلف فى سرعة ثم ينطلق يعدو بكل قوته فى اتجاه جماعة من جنود العدو أخذت أهبتها لمفاجأتهم من الخلف ..

وكان فتحى ما يزال يعدو دون حذر وكأنه فى مباراة للجرى ، حتى اذا أصبح جنود العدو فى مرمى نيرانه ، ارتكز على ركبتيه وبدأ يطلق مدفعه فى عنف .. وبينما كان جنود العدو يتساقطون كالفراش ، كان عادل يسرع لنجدته .. ولكن فتحى ما أن رآه حتى صرخ فيه يطلب منه الانسحاب مع رفاقه الى موقف آخر بينما يقوم هو بحمايتهم .. فى تلك اللحظة انقضت احدى طائرات العدو وفتحت نيرانها .. فسقط فتحى يسبح فى بركة من الدم .. وأسرع عادل نحوه ـ تحت وابل من رصاص العدو ـ فحمله بين ذراعيه وانطلق به بعيدا عن أرض المعركة ..

وفى المستشفى ، بدأ الاطباء يعملون فى سرعة لانقاذ حياته، فبتروا له ساقيه وخاطوا جراحه .. ولكن حالته ازدادت سوءا .. وبدأت حياته توشك على المغيب .. لكثرة ما نزف منه من دماء ..

وتبادل الأطباء النظرات ، وقرأ كل منهم فى عينى الآخر سؤالا واحدا يبحث عن كمية من الدم .. وارتسمت فى عينى كل منهم نظرة يأس مريرة !!

وعندما أدرك عادل المأساة ، مد لهم ذراعه وطلب منهم أن يأخذوا من دمه ما يشاءون .. وأجروا تحليلا سريعا ثبت منه أن دم عادل من نفس الفصيلة التى يريدونها .. وترقرق الامل فى العيون فقد بدا أن القدر يحابى الجريح .. الذى لم يلبث بعد عملية نقل الدم أن بدأ يسترد وعيه ..

ومضت الأيام ، وانتصر الوطن فى معركة حريته .. وخرج العدو يجر أذيال هزيمته .. بينما بور سعيد المثخنة بالجراح قد أخذت تنفض عنها غبار المعركة وتبنى نفسها من جديد !

وكان فتحى ما يزال طريح الفراش بالمستشفى تتأرجح حياته بين الأمل واليأس .. وجسده الضعيف الممزق فريسة لنوبات النزيف التى بدا انها تتآمر على حياته ..

وكان عادل يزوره بين الحين والآخر فيجلس اليه ساعات .. يحاول خلالها أن يملأ قلبه بالأمل وحب الحياة .. حتى ينتصر فى معركته مع الموت ! ..

وفجأة ، وقعت الكارثة !

فى ليلة آخر ديسمبر .. والوقت بعد منتصف الليل .. تلقى عادل حديثا تليفونيا يستدعيه سريعا الى المستشفى .

وبعد دقائق كان عادل واقفا أمام فراش فتحى والطبيب يخبره بأنه أصيب بنزيف شديد منذ ساعات وفشلت جميع المحاولات لانقاذ حياته

.. وانتابته غيبوبة كان لا يفيق منها الا ليردد اسم عادل ..

وحرك فتحي رأسه وفتح عينيه .. وعندما رأى عادل جاهد ليبتسم .. فبدت ابتسامته في وجهه الشاحب كضوء القمر في ليلة غائمة ! ..

وهمس فتحي في صوت خائر :

ـ لقد أزعجتك ما فيه الكفاية .. انى ...

وقاطعه عادل وهو يربت بيده في حنان :

ـ لا تقل هذا .. ألسنا أصدقاء ؟ .

وهمس فتحي بصوته المرتعش الضعيف وهو يجاهد لتخرج الكلمات واضحة مسموعة :

ـ نعم أصدقاء .. لهذا أوصيك بأن أدفن في مدينتي .. بور سعيد ..

وهتف عادل وقلبه يتمزق :

ـ لا تتحدث عن الموت .. أرجوك .. انك ستعيش .. ستعيش ..

وابتسم فتحي في مرارة ثم همس وقد ازداد صوته ضعفا :

ـ هل تزورني .. ولو مرة كل عام ؟ .

وصرخ عادل في انفعال :

ـ لن تموت ! . لن تموت ! .

وهمس فتحي في سخرية :

ـ هل خدعك الطبيب ؟ يا صديقي .. لن يجيء الفجر .. الا وأكون قد انتهيت ..

وقال عادل في رقة وهو يجاهد ليحبس دموعه :

ـ من قال هذا ؟

وأوقفه فتحي باشارة من يده ثم مضى يقول :

ـ أنا أعرف نفسي .. عدني .. أن تزورني ..

وبدأ صوته يخفت .. وازداد شحوب وجهه .. وانطفأ ما تبقى من بريق عينيه .. ولكنه استطرد في صعوبة :

ـ انى أرى الفجر ... الفجر .. الفجر ..

وسقط في غيبوبة ...

وانفجر عادل باكيا ...

ومضت ساعات جاهد خلالها الأطباء بكل ما يملكون من علم ومعرفة لانقاذ حياته .. ولكنه ظل في غيبوبته ..

ومع الخيوط الأولى للفجر .. أسلم فتحي الروح ..

مع مشرق الصباح الجديد ، كان عادل يدلف بسيارته الى قلب القاهرة .. التي كانت ما تزال نائمة اثر سهرة الأمس الصاخبة .. فبدت لعينيه كعروس أرهقها عبث الليلة الاولى !

وغادر السيارة ، ومشى في بطء يتطلع الى الحوانيت المغلقة .. فرأى بابا نويل بذقنه البيضاء كالثلج مايزال واقفا خلف الواجهات الزجاجية .. انه مثله لم يعرف النوم في ليلته .. ولعله أيضا مثله يعيش هذه الليلة من كل عام .. من أجل ذكرى تملأ قلبه ولا يعرفها غيره !.

وتثاءب وأحس برغبة عاصفة الى النوم .. وتذكر أصدقاءه .. لا شك أنهم يغطون الآن في نوم عميق .. بعد أن طال انتظارهم لعودته .. فلا ريب أنهم كانوا يتقاسمون فضولا ملحا الى سماع ما حدث في ليلته .. مع حبيبته المجهولة التي سرقته من صحبتهم !!